نصوص

الذي بعد الإقلاع والتي قبل الرجوع

حسام هلالي
أحمد فولة



سنابل للكتاب
SANABIL BOOkSHOP

سنابل للكتاب
٥ شارع صبري أبو علم
باب اللوق – القاهرة
الإدارة:
(+202) 2392 65 93
المكتبة:
(+202) 2393 56 56

E-mail:
sanabooks@maktoob.com

www.sanabil.net

الذي بعد الإقلاع والتي قبل الرجوع
نصوص

المؤلف:
حسام هلالي

الإخراج الفني:
أحمد فولة

الطبعة الأولى: 2008

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٨٥٩٣

الترقيم الدولي: 977-5136-41-7

الذي بعد الإقلاع والتي قبل الرجوع

إلى التي أقلعت
بعيداً عن سمرتها..
وتلتقي الذي لم يعد إلى سمرته..
ليرتكبا وراء البحر
البوابة التي عبرت منها إلى هذا العالم.

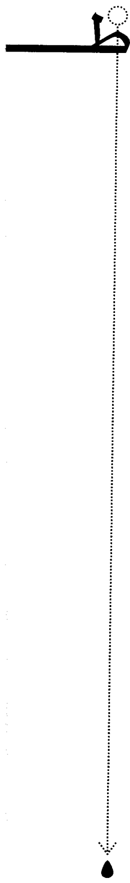
إلى إحسان. وسري هلالي
أهدي هذا الكتاب...

ولقريتي النيلية النائية التي لم ترني بعد ...

حسام

إلى ضوضاء القواقع البحرية

فولة



بخطى هوينية مترنحة ... أتعس من ثمل سار على طريق. لا يدري إن كان هو من زُرع عليها أم أن الطريق هي التي ارتمت تحته! يربت على بطنه مرة متحسراً على فراغها إلا من لحمها المجوف. أو يمسح عرق جبينه بطرف القميص الرث مرات أخريات. قاطعاً بذراعه اليمنى مسافات شاسعة من الخلايا التي مكثت مكانها عقوداً من الزمان متواشجة بهذا الجسد العتيق.

تتحدى تتابع الجروح عليه بقدرتها الدائمة على التخثر وتخدير الألم بلا مبالاة المحارب. ظلت صورته معلقة بكينونة المدينة (في أحيائها الجنوبية فقط) كوجه عابر تحتفظ به ذاكرة موظف استقبال مؤقتة. بشعره الأشيب ووجهه الزاخر بالتجاعيد القاتمة حيث لم تفر من عتمتها إلا عيناه اللتان ورثتا لون الأصيل. أما ملابسه فهي ثابتة في كل أيام السنة لا تصبغها أعيادها ولا تكويها الثلاثمائة وخمس وخمسون مقتاً الباقية منها. ثبوت أزياء شخصيات الرسوم المتحركة في كل حلقاتها. لكنه لم يلاحظ وجه الشبه بينه وبين فقرة الأطفال. فالمتشردون لا يملكون متسعاً لمشاهدة التلفاز.

ما من مسجد قريب تنهض مئذنته لتشق استواء السقوف. فيتسنى له الشرب من عنده ماءً زمهريراً (زمهريراً جداً) أو حتى ليصلي فيه صلاة استسقاء غير مجدية.

ما من نهر يقسم خاصرة المدينة إلى ضفتين..

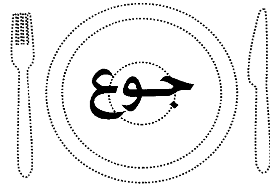
ما من آبار تسرق ما خزنته الجيولوجيا تحتها..

ما من كريم يعطف... إلى آخر المدينة . سيكون جوابها عطشاً في عطش. يمشي... فقدماه لا تملكان غير المشي وإدمان الطرق الجانبية بين الحارات. حتى إذا ما انحنت مسيرته نحو زقاق على هامش النيون. وتسربت الألفة عن جدرانه هرباً إلى النسيان. اتسع محجر عينه اليمنى ليضيق بتفاصيل حائط لم تبد حجارته أفضل من غيرها. سوى أنها أوت تحتها بعض فطريات مخضرة عائمة في ما يمكن -تجاوزاً- تسميته بالماء!

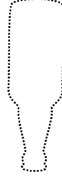
انغمست مفاصله في ركوع. وعندما اتسع قطر الرقعة المستديرة لوجهه الساقط على سطح البركة. مد راحتيه كعجوز يدعو بعد الفراغ من صلاته. مسترقاً من ركود تلك الزاوية ومن مكوث ذلك الخرير بين جنبات الصمت جرعة مما نسيته الغيوم في الحضيض. تلقف الذي بدا عاجزاً عن التماسك بين أنسجة جلده وهزال أصابعه. فأصدرت رقرقته لحناً نزع شوكة الشك من جلده اليابس. صارت البركة واحةً بين شفتيه بعد أن أنف السراب عن ممارسة لعبته مع متشرد مثله في صحراء أخفتها المدنية في جيوب الأسمنت لكنها لم تلق بها في رمال العدم.

....

لم يعبر أحد في الزقاق. غير كلب بدا مرتوياً من منحناً آخر. وظل رجل يحمل على ظهره ظل حقيبة. سقط سريعاً من سقف قريب. بدا الظلان في شيء من النشاز وهما يعبران الدرب الترابي. والجيد في الأمر أن العابرّين (الكلب و الظل المزدوج) لم يباليا برؤية الرجل مرتوياً بتلك النكهة التي أصابت من ملامحه عبوساً جديداً ما كان ليتصور أن وجهه يتسع له. غطس رأسه في ندى كفيه مبتغياً بذلك انتعاشاً نتناً. ثم أومأ مراراً وبسرعة منتفضاً كهرة تبعد عن نفسها شبهة الاستحمام. وبينما تنهمك رقبته في الحركة التقط الأصيل الماكث في عينيه صورة شيء أطال الثبات ناظراً نحوه. أخذ يبحث داخل جمجمته وقاموسه المصور عن اسم هذا الجسم. أخذ يتحسس ببصره شكله الأسطواني واتساعه الذي يختنق إلى الأعلى مكوناً عنقاً من زجاج. اقترب نحوها حذراً من فخاخ الذاكرة. التقطها وأخذ يقلبها في يده. ربت عليها مبللاً. ثم بدأ بإزاحة بعض الشوائب المتعلقة بها . إلى أن فاضت شفافيتها بماء البركة. خرج مرتوياً من زقاقه وقد شاركته الزجاجة في طوق سرواله بعد أن سدها بقطعة فلين أتت من عدم المكان. فطوّق السروال جسدين ممتلئين بنفس السائل. عل الظمأ يراود أحدهما من جديد فيتفرغ في الآخر.
اندلعت المفاجأة أمامه حين خرج من الزقاق ليدرك وصوله لميدان البلدية. رأى الصبية بألوان زاهية يلهون حول النافورة المستديرة أمام المبنى. لم يفرز بين الألوان لكنه استنشق منها مرحهم. انسل إلى ظمئه النائم خلسة شعور بالندم. شاهد تفجر قطرات الندى في صدر النافورة ورذاذها الذي يرسم على شفاه الأطفال بسمات بريئة مبللة بالفرح. نسي كل عمره المرمي خلفه وركض كطفل. تناسى كل ما هو قاتم في عالمه المختزل داخل أوجاعه. حين وصل للحلقة قام بإخافة الصبية صارخاً. وكأن ملامحه لم تكن كفيلة بفعل ذلك. أبعدهم. نظر إلى سطح النافورة منفرج الدهشة. كفارس انتهت فتوحاته بأفق لا ينتهي.. من الماء. هبط عن جواد التشبيه إلى نافورة الواقع. غطس عينيه العسليتين في شفافية السائل. ورأسه مدفون في غرق مبهج. شعر بالقشعريرة تسري داخل جسده لزاماً مع حبله الشوكي فاتحةً هي الأخرى لخلاياه البائسة التي ابتلعتها ملابسه. حيث طوق سرواله يمسك بخصر الزجاجة المحتلة لخصره. أفاق من غطسته مرتوياً. نظر إلى أسفله بشيء من الاشمئزاز. ثم أمسك بالزجاجة. قلبّها بين أصبعين معايناً -كمن يلتقيان للمرة الأولى- أفرغ محتواها فوق نباتات لم يرها تتطرف سور النافورة. بعدها ألقى بها بعيداً -والصبية يشاهدونه من تحت نظراتهم في سكون- تهشمت إلى شظايا مدببة لكن لحظة دخوله للزقاق ظلت عالقة. تناثر قهره الذي احتفظ به داخلها أمام ميدان البلدية المهيب. شعر بشيء من الارتياح وقد ربت على بطنه **يتجشأ**.


جوع

من كان ليهتم كم الساعة في ذلك الوقت. خصوصاً أن ميدان البلدية لم يشهد جائعاً مثله يومها. لدرجة أن صاحب المطعم شعر بالرعب وهو يحاول اقتناص قطع الطعمية من المقلى. كانت ثورة الزيت ترمي بشباك الرائحة في المجال، وتستدعي كل الضعفاء أمام بطن خاوية. لتوه أدرك الحيلة. لم يعد الصبية إلى لعبهم. خصوصاً أن العرض ما زال مستمراً. كيس كبير من الآلات ذات الإيقاعات المعدنية أخذت تصدر موسيقاها الخاصة في ضجة الميدان. كانت على كتفه وهو يركض. من ظل يلقى على الزقاق فوق بيت واطئ.. إلى عداء يسابق نباح كلب لم يجد مهنة غير حراسة العراء ممن لا تعجبه رائحتهم. كان يصرخ فوق النباح. سحب الرجل المرتوي رأسه بقوة من رائحة جوعه إلى صوت خوفه . لص.......... وكلب لا يميز يركضان نحوه. ما كان منه إلا أن ينطلق مستبقاً العضة باتجاه المطعم ذي الأبواب المشرعة. لكن المطاردة مضت، ووجد نفسه أخيراً داخل الرائحة على شفا لقمة من فمه. لولا أن ثأراً قديماً لم يمض عليه سوى دقائق قد أطبق على قدميه وذكّره أنه لا يزال حافياً. تسمر كالأبله. عاجزاً بكل أسنانه التي تفوهت صرخة عارمة زادت من فزع صاحب المطعم الذي لم يكد ينجو من تطاير الزيت ليواجه هذا المارد الذي مزقه قمقمه. هناك .. حيث عبر أثناء الهروب الصغير كانت شظايا الزجاجة التي ألقى بها إلى الهامش تحتضر وعلى أطرافها لمعة ابتسامة تتشفى بقطرات دم اعتصرته الأنيميا حتى جفت حمرته !.



بوعمه اخرى وكثيره عصير مهوديه دوله اسرائيل التي يصر عليها الاسرائيليون بما يؤكد على خريطة لفلسطين يكرس معها الانفصال عن فلسطين التاريخية التي اقتسمت في ١٩٤٨ في الآن نفسه يناط بالفلسطينيين انفسهم حل مشكلة اللاجئين كما لو ان الغد هذا منفصول عمليا عن القضية الفلسطينية، مربوطة دولة فلسطين، التي ساعدها الدول العربية و دول العالم على مدلله لكن المعنى الضمني الآخر الذي تحتويه المداولات والتصريحات والمقالات السابقة على انابوليس بعد ان الفلسطينيين هم انفسهم وكاداة سلطة في دولة نفسها المسؤولون عن مد الانقسام بين الضفة الغربية وغزة فان لم يحلوا الاشكال الذي ساعدهم الآخرون على حله وان لم يتم التغلب على انفصال حماس بالقطاع ستصبح فلسطين مرة اخرى تقتصر على الضفة الغربية

وهذا معطوفاً على حضور المداخلة السورية بالجولان بعد فصل المسارين اللبناني والسوري وبعد الحسم في امر استقلال لبنان وسيادته يكمل تلك الفلسفة الصاعدة التي عمرها اكثر من اربعين عقداً ودولة شاركت في انابوليس.

ذلك أن العالم وعد ان للحضر ان يصلنا دول وشعوب وليس عصابات عابرة للدول

مجرد سرقة أدبية

لم ينشر الروائي الذي لم يشتهر بعد روايته الأولى حتى الآن. على الرغم من انتهاءه من كتابتها وتجهيزها للطباعة. ففي الوقت الذي كان مستغرقاً بإنجازها والذي تجاوز العشرة أعوام. لينهي سبعمائة صفحة زاخرة بألفي شخصية مختلفة. و مئات الآلاف من الجمل والعبارات والمفردات. منهمكاً في ابتكار التعابير والتوصيفات. كان الروائي قد طرد من العمل في الصحيفة. وقامت زوجته برفع دعوى طلاق ضده بعد أن أنجبت توأماً من صديق في مدينة مجاورة. وبالطبع.....

(المزيد صفحة ٩)

صحيح أن مطره كهذه تترك قضايا معلقة كثيرة كوضع عرب اسرائيل في دولة يهودية، عرضة للتفكير والحلول المستقبل التي تعترض السعي الى جعلها تضييق النص وتوسيع هامش العدالة الا ان الحاسم وضع حد لذلك الالتباس القاتل الذي عاشته المنطقة طويلاً حتى تداخل الدول والشعوب على نحو يفجر بعضها ويخضع بعضها للبعض الآخر بذريعة قضية فلسطين واسمها الرنان. مقابله اسرائيل والفلسطينيون انفسهم لم يكونوا ضحاة من المعاناة تلك في فلسطين وفي سائر البلدان التي نزحوا اليها

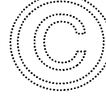
مثل هذا الترشيق لقضية فلسطين هو ما يصح الدور الايراني الراهن برهانا على الحاجة اليه فالعبور من فوق دول وشعوب وثقافات تحضر طهران الى ساحة المشرق العربي خوض معركة فلسطين مراهنة على العواطف السائدة لجمهرة المصابين بـ مقابله اسرائيل حتى لو تصدعت بلدانهم ومجتمعاتهم وغني عن القول ان الاصابة هذه بعدما بلغ بها الاستفحال غدت تتطلب أدوية مضادة على نحو عاجل

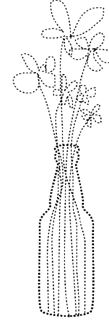
غير ان ترشيق القضية الفلسطينية المعلنة قد يصاحبه ترشيق القضية السورية المكتومة وربما جاز القول ان ثمة رغبة كونية في دفع سورية الى استعادة الجولان بوصفها جزءا من التراب الوطني السوري مقابل سحب أدوارها الاقليمية من التداول وهي التي يضيفها البعض

وبالطبع احتفظت بحق حضانتهما. بعد أن عجز إخوته في الحصول على حصصهم من منزل والدهم الذي احترق أثناء تواجد الكاتب في أحد المقاهي برفقة دفتره الأسطوري. ساهياً عن إبريق شاي كان يعده بعد الغداء. فلم يستطع توفير مسكن بعد أن طرد من المقهى مديناً بفاتورة مئوية. صار بلا مأوى بعد فقدانه لأي مصدر رزق و طرد من اتحاد الكتاب لأنه وحسب رأي البيان الذي أصدر عقب إعلان التسريح :

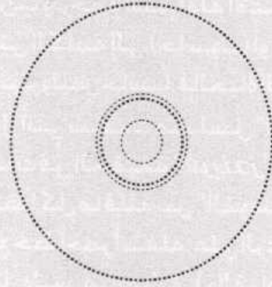
«لم يعد مستوفياً لشروط العضوية في اتحاد الكتاب، فبغض النظر عن كونه لم يعد منتجاً، فهو لم يصدر أي كتاب منذ انضمامه للإتحاد، والذي جاء تكريماً للدور الذي لعبه في ترسيخ الحكم البائد ....»

وبالطبع .. أثار البيان اهتمام السلطات. خصوصاً أن الحكومة الجديدة كانت شغوفةً بترسيخ قواها هي الأخرى. وبعد أن استطاع زملاؤه إخراج الدفتر سالماً من المعتقل. كانت الرواية قيد الطبع .. لكن سبباً واحداً منع الناشر من إكمال الأمر. فبعد خروجه من المعتقل كان الروائي قد نجح في إفشال كل مساعي المحققين "الحثيثة" في غرف الاعتقال لاستخراج المعلومات منه. لأنه كان قد نسي اسمه نفسه. مما دعا الناشر إلى نشر الرواية في طبعة شعبية محدودة تحت ما اعتقد أنه اسم مستعار نصحه به أحد أصدقاء الكاتب المنكوب. ولكن اتضح في النهاية أن الأمر كان محض قرصنة لصالح كاتب آخر حاز بكل وقاحة على جائزة الجمهورية في الأدب بفضل هذه الرواية. فكان ذلك سبباً كافياً لدفع الكاتب الأصلي إلى الانتحار.. إلا أنه - ولحسن الحظ - لم يعرف بالأمر. فقد كان المرض أسرع. خصوصاً أن موت الإنسان يبدأ حين تجف جيوبه. وبما أن الأمر كان ملهماً، فإن الكاتب صاحب الجائزة قرر التكفير عن خطيئته





التي اقترفها بصديقه بالتبرع بثمن الزهور في جنازة الفقيد. وقرصنة قصة حياته بمجملها كمشروع لرواية تكون من تأليفه هذه المرة. لكن الروائي الذي اشتهر بعد نيله جائزة الجمهورية لم ينشر روايته الأولى - **الحقيقة** - حتى الآن. لأسباب خفية!.



لماذا يقتني عمك بدوي كمبيوتراً ؟

علي أن أعترف في البدء أنني ناقم على هذه اللغة التي أكتب بها. ولا أقصد باللغة أسلوبي الخاص في الكتابة. ولكنني أقصدها عموماً -أي العربية- وربما سائر الثقافة الخاصة بها. تملكني هذا الاحساس عندما انتهيت من كتابة العنوان. متعمداً جعل الكمبيوتر منصوباً (كمبيوتر العم بدوي و ليس كمبيوتري !) . فخ التعريب وترجمة اسم الآلة الأعجمي وما إلى ذلك ليس إلا هراء! لماذا أترجم في كتابتي الكلمة إلى (حاسوب) أو (حاسب آلي) وأنا أتعامل مع الكمبيوتر بوصفه كمبيوتر وليس حاسباً. فالحياة الواقعية عامية وليست فصحى. لست مضطراً للقول أنني شاهدت مسلسل "الأصدقاء" على التلفاز.. كم هذا سخيف ! لقد شاهدت في الحقيقة "*فريندز*" على التلفزيون. وعلى قناة "*إم بي سي-تو*" .. لاحظ ! كل ما قلته بين "القوسين" قام المصحح في برنامج تحرير النصوص بوضع خط أحمر أسفله. على الرغم من أن برنامج "*مايكروسوفت*" هذا قادم من سياتل وليس من دمشق. (والقناة .. ولسخرية القدر سعودية وليست أمريكية) لكن عمك بيل جيتس حريص على هذه اللغة كأي عضو في المجمع اللغوي. أنظر هناك في وسط السطر الثالث حيث كلمة (الاحساس) أيضاً خط عليها بالأحمر. هذه اللغة المعقدة تريدني أن أكتب احساسي بهمزة تحت الألف. ولكنها لا تعلم هي وعمك "بيل" أن هذا الخط الأحمر يمنح المفردة ألقاً وجمالاً. دعوني أحاول معرفة ما يقترحه البرنامج علي لتصحيح الكلمات. فكل كلمة يشك هذا السياتلي من كونها أعجمية أو عجمية -لا أدرك الفرق- يقترح بتصحيحها بكلمات معينة. ما لم تكن مفردة نخبوية تعيسة قادمة من اللاتينية مثال: السيمترية. فهو يدون في القائمة المنسدلة -لاحظ التسمية!- عبارةً بين قوسين بخط رمادي خجول وطفيف قائلاً: ((لا يوجد اقتراحات للتدقيق الإملائي)) وهو يكتبها هكذا حقاً (لا يوجد) وليس (لا توجد). هناك استلاب بالأمر. إنه يخطئ في التعبير ولا يحق لي ككاتب غيور على اللغة العربية صيانة الأمر إنطلاقاً (سأكتب إنطلاقاً بهمزة نكاية بك !) من حرصي على نقاء اللغة من الخطأ. هذا البرنامج المايكروسوفتي ديكتاتور ولا يقبل النقد! خصوصاً فيما يستحق. الأسوأ من ذلك أنه انحيازي كسائر ما هو أمريكي.. ويمارس المحسوبية. تخيلوا أنه لا يعرف السمترية هذه المدرسة البارزة في التشكيل. ولا يعترف بوجود "سيمنز" هذه الشركة الألمانية العريقة التي أسسها علماء في الهندسة الكهربائية وشاركوا بعقولهم في الثورة الصناعية بأوروبا. بينما يخزن في ذخيرته اللغوية كلمة أعجمية أو عجمية -لا أدرك الفرق كما أوضحت سابقاً-

كمايكروسوفت، وبأي أسلوب (مايكروسوفت بالألف أو بدونها: ميكروسوفت) دون أن يضع تحتها أي خطوط حمر رغم عدم أصالتها. بينما كلمة كـ"حوّش" وهي فعل بمعنى: ادخر. كلمة أصيلة في العربية لكنه يضع تحتها خطاً أحمراً (ليس في مكانه) ويقترح استبدالها بأي من الكلمات التالية: (حوشا - نحوش - أحوش - تحوش - حشو) لا تعليق! في حين أن كلمة كـ"سخلة" وهي بالعامية السودانية (بالمناسبة أنا سوداني:) وتعني الحَمَل. قمت بسردها في قصة أقوم بكتابتها في مرة من المرات. فقام المصحح الإملائي المحترم المنوط ببرنامج تحرير النصوص الموقر بالإشارة عليها بالقلم الأحمر. وهو هنا أيّ بيل غيتس أو جيتس يورط نفسه في سجال حول قضية لا "بورش" له فيها ولا "فيراري" - أعتذر للتراث الشعبي الخاص بثقافة لغتي فعمكم بيل لا يعرف ما هي الناقة لذا وجب مراعاة البيئة الغربية! - وأنا أعني بالقضية (سؤال الهوية) اللعنة كم أخاف هذا السؤال! الذي يتحول أحياناً إلى صراع. ليس على الصعيد الثقافي فحسب. بل إنه قد يدفع لحمل السلاح كما يحدث في بلادي الآن ومنذ عقود. فهذا الكمبيوتر يستلب الهوية السودانية (هذا المزيج الأفريقاني / العروبي التعيس. أو ذلك الخليط العربي / الأفريقي البائس) يستلب الهوية السودانية بوصفها تفتقر للعروبة. فهو لا يعترف بالسخلة ككلمة عربية. في حين انه بإمكاني كتابة عبارة كـ: *شو عم تحكي وليه؟!* متسائلاً عما يقوله هذا الكاتب الأحمق بعامية شامية. ولكنه لا يخط أي خطوط حمر تحت العبارة السابقة رغم أنها عامية. بالتأكيد لا يمكننا القول أن سورياً من دير الزور يمكن وصفه بالعربي مقارنةً بسوداني من دارفور. هذا المثال واقع حتى لو تجاوزه حزب البعث العربي الاشتراكي - القطر السوداني. واصفاً الأمر بأنه إهانة للعروبة ذات الرسالة الخالدة في أرض السودان المجيدة. في الحقيقة أنا لا أقصد الإهانة الموجهة تجاه العروبة (اللغة و الثقافة أما القومية و ما يحيط بها من هراء فأقصده!) فأنا لست سودانياً فقط.. بل و نوبي أيضاً. وهذا يحتم علي الشعور حيال اللغة العربية ببعض الالتباس. كونها لغتي الأم. لكن لغتي الأب - أي النوبية - تحرضني دائماً بدافع الرقابة الأبوية على تهميش العربية. رغم أنني لا أتقن اللغة الأب. على عكس والدي الذي يفضل الحديث بها في حالة تورطه بالنميمة مع عمي ساعياً لتشفير الكلام وإبعادنا عن فهمه خاصة في حالة سرده للنكات الجنسية. مما دفعني للشعور بالالتباس أيضاً تجاه الأب.. أقصد اللغة الأب. والاعتقاد أنها لغة صالحة فقط للدردشة والتندر بما يعيب. ولكن في ظل سودان مقدم على

الانفصال والتقسيم (وهذا واقع مؤسف بكل تأكيد) فهل إذا ما انفصلت جنوب النوبة -أي الجزء النوبي في السودان- فهل ستكون اللغة المعتمدة في جامعة دنقلا أو المدارس الثانوية في حلفا هي النوبية. وأي اللهجات النوبية ستستخدم: الـ فديجّا أم الـ متوكية ؟! تخيل دراسة الفيزياء باللغة النوبية ! فيزياء لن يتقنها آينشتاين بقدر ما سيفهمها محمد وردي أو علي الكسار.

فجأة! دخل والدي الغرفة، وأنا منهمك في الكتابة على الكمبيوتر وسرد كل هذه الأفكار والترهات، وكانت الغرفة غارقة في موسيقى "الريغي" الصادرة عن جهازي، حيث لا تحلو لي الكتابة بلا موسيقى. كان والدي قد تذكر شيئاً مهماً يود إخباري به بينما لحقت به أختي مهرولة. الغريب أن الاثنين كانا قادمين لأسباب موسيقية. أبي كان يود الاستماع لشريط محمد منير.... (إمبارح كان عمري عشرين) ليستمع إلى الأغنية التي غناها منير دون الإشارة إلى الفنان السوداني الذي غناها في الستينيات "أحمد المصطفى":

- الغنية اسمها شنو؟
- "القربو يجنن".. منير عاد توزيعا بالخواجة حقو ده اسمو: "*رومان بونكا*". و سماها "حكايتو حكاية"!

سب والدي دين محمد منير، كعادة الحلفاويين. واستمع للأغنية بعد أن أنزلت نافذة برنامج تحرير النصوص إلى أسفل شاشة الكمبيوتر، حيث كانت الأغنية مخزنة في الجهاز، بينما مدت لي أختي من الناحية الأخرى من المكتب سماعة الموبايل الذي تحمله، حيث كانت قناة "*مانجو - إف إم*" تعرض أغنية لفناني الجزائري المفضل / الشاب مامي، وأنا جالس فوق الكرسي أمام الكمبيوتر كان والدي على يميني يستمع لأغنية ود المصطفى بينما أنا وأختي نرقص على إيقاع "الراي". اندهشت في بادئ الأمر حيث أن السماعة الوحيدة الخارجة من الموبايل نوكيا (6610) كانت في أذني، فاكتشفت أن الشقية كانت تخفي جهاز والدتي الـ (6510) في جيبها وبسماعة أخرى كانت تستمع لنفس الإذاعة. وإذعاناً لذكاء أختي تناولت منها السماعة الأخرى واستمعت لأغنية واحدة على هاتفين .. بمفردي. استرجعت سطراً من قصيدة لأيوب مصطفى:
"وفرحت كأني أقضم وحدي تفاحتين"

انتهت الأغنيتين. خرج والدي منزعجاً على استباحة التراث السوداني. بينما عدت أنا إلى الملف الذي كنت منهمكاً عليه. لكنني اكتشفت أن الإلهام غادرني مع خروجه وابنته. وصرت غير قادر على مواصلة الكتابة. لذا فإنني أعتذر لكم عن هذا الانقطاع المفاجئ على الرغم من رغبتي الفعلية في إخباركم لماذا يقتني العم بدوي جهاز كمبيوتر. فالعم *بدوي* لا يجيد استخدام الكمبيوتر فضلاً عن كونه لا يملك ثمنه. وحتى إن كان يملك ثمنه فقد ولد العم بدوي أيام الفيضان الكبير بعد وفاة المهدي. وتوفي في الخمسينات بعد الاستقلال بشهرين ... في الحقيقة .. أنا لا أعرف من هو العم بدوي هذا أساساً . لذا .. عذراً لأني لم أجد مبرراً للكتابة أفضل من ذلك !.



قصة بايخة

إنه أكثر المقاهي التي أرتادها واستمتع بالتواجد فيها لملاقاة الأصدقاء، أو للقاءات المتعلقة بالعمل، وأحياناً ما أصادف فيه أشخاصاً غرباء. غرباء في أطوارهم، أو مشاهير غير متوقع وجودهم هناك. إلا أن المقهى كان قد فقد واحداً من أكثر زبائنه تردداً عليه ذات مرة حينما كان من يشارك طاولتي في وقت الظهيرة هو: "لوكل النقيطي" بعد دعوة مني لتقاسم الطاولة نفسها. وهو في الحقيقة ناقد عدائي مثير للتشاؤم ومحطم مجاديف من الطراز الأول (أعلم أن هذا هو التعريف العام للنقاد .. لكن الكاتب رفض الاعتراف بذلك في النص لأنه ينوي نشره !) . عرفته لا لشهرته، بل لأنه دائماً ما كان يضع صورةً شخصية مخزية برأس عموده في الصحيفة التي أسرقها من باب جارنا صباح كل جمعة. وهذه صورة غير مشرفة حقاً - كوني سارقاً - لكنني حقيقةً لا أهتم بالمستجدات إلا صبيحة ذلك اليوم من الأسبوع حيث يقضي جاري عطلته مع والدته في "مدني". كنت قد قرأت لهذا الـ"لوكل" عدة مقالات كان آخرها عن "فرقة الوازا" فشعرت بعدها بأنهم سيصرعون قتلى بعد قراءة الصحيفة إما بجلطات دماغية أو كانتحار جماعي ! -هذا إن قرؤوها- فالرجل لم يدخر جهداً لإعلامهم بمدى حقارتهم، وكونهم ثلة من الصعاليك لا يعتد بها كفرقة غنائية، وأنهم لا يمتلكون الحس الإفريقي في أدائهم. وأخذ يسترسل ببعض الهراء حول الإيقاع والجملة الموسيقية والصولفابية .. إلخ. كل هذا في أول لقاء لهم بالجمهور في مركز ثقافي خفيّ بجانب أحد الجسور على النيل. وحين كان قد انتهى من مقالته كنت قد تأبطت الجريدة واستعدلت في جلستي لأسأله عن تعليقه الختامي القائل : (ليس من الأمانة أن يغني المرء لـ"بوب مارلي" دون أن يعرف ما هي الـ باياكا - Pyaka !). فقلت له مرحباً:

- أخيراً يا أستاذ / لوكل وجدتُ مستمعاً جيداً لـ"ريغي" يعرف ما هي الباياكا ؟!

- أحقاً ! قال "لوكل" هذا : سأكون شاكراً بالفعل إذا ما عرفتني بهذا الشخص ، أنا أيضاً أود سؤاله حولها ؟!!

صدمتُ. وددت لو أسأله إن كان قد حاول لقاء أعضاء "الوازا" أم أن نقده كان على سبيل الاجتهاد، ولكنني اكتشفت أنه لا يعرف حتى أي أغاني بوب مارلي تلك التي كانت الكلمة قد وردت فيها حقاً ! فخفتُ أن أورط صاحب المقهى في الإحراج حين

يسألني عن سبب الشجار الذي سينشب. فلا يعرف هو أيضاً ما معنى الباباكا !
كنت أفكر في مغادرة المقهى ونهائياً عندما سألني مستعجلاً خطوتي الآتية هذه بالقول :

- هل ذهبت لحفلتهم ؟ قيل لي أنها كانت مزدحمة !



$$١ - \frac{١}{٢} = ٠$$

عندما حدث الأمر كان
هو في المطار. ابتعد
عن بلاده آلاف الأميال في
عمق قارة أخرى. لكن
المشكلة كانت لابد أن تدركه
بغتةً... كلعنة. سيدفع الآن ثمن أميته. وكونه سكن
قريةً لا تصلها الكهرباء ولا الأخبار الطيبة. فبوصفه
خريجاً من ميتم لضحايا الحرب بامتياز. ومصاباً
بالصمم. ما كان عليه سوى أن يفغر فمه ويبدأ في
إثارة الإزعاج بصف الانتظار
أمام منصة شرطة الجوازات.
عندما اشتم رائحة الرفض
تفوح أمامه. بينه وبين
المدينة الجديدة. وهو يتحدث
بأصابعه. قدر الضابط حجم
المشكلة. هنا وهناك. ولم
يمنحه إذن عبور. بينما كان
الختم تحت ذراعه مباشرةً.
فاتصل بأحدهم ليأتي بخبير
في لغة الإشارات. وإلى ذلك
الحين اقتيد المسافر الغريب
إلى غرفة مجاورة كانت تعد
سجناً بالنسبة للمسافرين
المتمرسين. بينما اعتبرها هو
عنواناً للضيافة وشيئاً مبهراً
ما كان ليشاهده حتى في
الخرطوم.
شعر بالملل عندما تخلص
من محتوى علبة الكولا
واحتفظ في جيبه بالصفحات

المبتورة

من إحدى المجلات التي وجدها ورمى بها فوق
الطاولة بعد أن خلصها من كل ما هو مشين. مستمتعاً
بممارسته للرقابة على المطبوعات. وعندما لم يكن
باستطاعته سماع ضحكات المختبئين داخل كاميرات المراقبة.
كان يقلم أظافره بأسنانه رغم أن قلامة الأظافر كانت
بالجيب الخارجي للحقيبة محاطة في تلك الفوضى
ببكرة شريط لاصق لن يستعملها الآن. بينما
انهمك في ممارسة عادة قديمة كان يقدم على
فعلها كلما شعر بالتوتر. إلى أن حصل على ملخص لآخر
نشرة أخبار من المتخصص
في لغة الإشارة الذي جاء
برفقة ضابط مسلح اهتم
بتدوين بعض الملاحظات.
والتبسم بعد كل جملتين. بهت
الرجل. وأصيب بالبكم مجدداً فوق
كونه أصماً منذ الولادة. فالضابط
لم يرفض تمريره كنوع من
العنصرية أو الاشتباه الجنائي. بل
لسبب وجيه وهو أنه ينتمي الآن
لبلد غير موجود على الخريطة !
((الخرطوم،أسمرا،القاهرة – أف ب:
أعلنت حكومة جنوب السودان
في وقت سابق من مساء أمس
الانفصال عن النظام الحاكم في العاصمة الخرطوم والاستقلال من
جانب واحد. في تطور بالغ وصفه المراقبون بأنه الأسوأ بعد توسع
الخلافات داخل حكومة الوحدة الوطنية وتدهور عملية السلام ووصولها
إلى طريق مسدود. ونتيجة لذلك اندلع القتال داخل العاصمة نفسها بين
الميلشيات المسلحة . بين الحكومة المنقسمة من جهة –المؤتمر
الوطني والحركة الشعبية– وبين السكان المحليين الذين ذهبوا للاحتماء

حـــيـــث

ستلعب الاختلافات الاثنية دوراً كبيراً في

انتشار المذابح بين الأفارقة والعرب . وفي الوقت نفسه

(أ ب) استغلت أسمرا سوء الأوضاع في الجارة السودانية لصالحها

للقيام بما أسمته : "استعادة مدينة كسلا الارترية من الاحتلال

السوداني" وتوغلت كتيبتان للجيش الارتري داخل الحدود

لأكثر من ستين كيلومتراً، في وقت يتعاقب مع انتهاء توقيع

الاتفاق النهائي لترسيم الحدود الارترية - الأثيوبية وبدء

العلاقات الرسمية بين البلدين . على صعيد مماثل أعلنت القيادة

العامة للقوات المسلحة

المصرية في بيان لها أذيع صباح

أمس ، بأن الجيش المصري قام

بإعادة انتشار لقواته على

الحدود الجنوبية مع السودان، إضافةً

لقيام عدة طائرات من سلاح الجو

-لم يحصها البيان- باختراق الأجواء

السودانية و التحليق لأكثر من خمس ساعات

متواصلة . للتأكد من سلامة

الأوضاع و ردع أي عمليات قد

تقوم بها حركة "حسم" النوبية

الانفصالية، والتي تخشى القاهرة

من تأثيرها على المناطق النوبية المصرية !. واستمراراً للأزمة،

فقد أعلنت الحكومة التشادية حالة الحرب على ما أسمته

"النظام الفاشي في الخرطوم" متهمةً إياه بالضلوع في دعم

المتمردين التشاديين من خلال قواعد تدريب عسكرية في

إقليم دارفور المتأزم ....)) انتهى الملخص.

لم يكن قادراً على معرفة ما يجب عليه فعله حقاً. خصوصاً أن

إحساساً غريباً أخذ يتملكه. فهو لم يقلق على مصيره فقط.

فهو الآن و رغم كل شيء في بر آمان عن الدماء التي قد

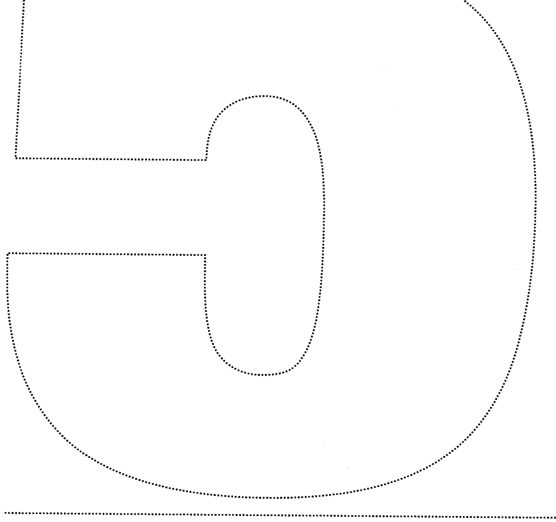
تصبغ لون النيل. لكنه أحس لأول مرة

بالقلق على من لا يمت لهم
بقرابة مباشرة، سوى أنهم
يحملون نفس الجنسية التي ظن أنه
سيحملها إلى الأبد.
وبعد اثنتي عشر ساعةً من الاحتجاز في
تلك الغرفة المعزولة عن صخب المطار،
والممتلئة بصخب أفكاره وحده. أخرج من
حقيبته اليتيمة قلامة أظافره التي أخفت بين
فخذيها المعدنيين مشرطاً حاداً. لم
تطاوعه في البدء حيث أصر   الشريط اللاصق أن
يتشبث بطرف القلامة. إلا   أنه انتشلها من بين
صمغه وألقى بالشريط   فوق الحقيبة التي
فغرت فاها تحت فعلته   حين قام بتمزيق
دفتره الأخضر إلى جزأين،   شمالي وجنوبي ..
صار الدفتر دفترين ولم   يعودا جوازاً صالحاً
للسفر، رغم أنهما احتفظا   بنفس سماتهما
السابقة: الجلد الأخضر /   عبارة: "جمهورية
السودان" / نسر الجديان   الطائر بلا ساقيه
تحت شعار: "النصر لنا"   غير المجدي، بينما
اسم الجمهورية مدون بالإنجليزية في الجزء الأسفل مع عبارتين تعريفيتين
بنوع الدفتر باللغتين. فتح الصفحة الأولى في الجزء الشمالي حيث المناشدة
غير المجدية للسيد وزير الداخلية المقتول منذ ساعات على الجانب الداخلي
للغلاف / اسمه مدوناً بالعربية في الصفحة المقابلة / ثم مهنته في الثانية
ومكان الميلاد / تليها الصورة / وصفحات المرافقين الفارغة / الختم الذي
يعترف بدولة إسرائيل في
الصفحة السادسة لكنه
يمنعه من السفر إليها /
وصفحتان متتاليتان تتسع
للفترتين الأولى والثالثة
لتجديد الجواز / صفحة

الملحوظات التي تشير لكونه أصماً / وأخيراً التأشيرات حيث ختم الخروج من مطار الخرطوم / والصفحة المأهولة بنصف ملصق التأشيرة التي خولته لشراء التذكرة والقدوم إلى هنا / في الجزء الثاني ذهبت البقية .. شعر بشيء ما في داخله لم يستطعم نكهته وهو يعتدي بدوره على كيانه وتمزيق هويته خائناً التنبيه في الصفحة الأخيرة على عدم إتلاف الجواز . تساءل وهو يفشل في قراءته متخيلاً معنى كل هذه الطلاســـم :

كيف يصون جواز سفره،

ومن أوصوه بفعل ذلك لم يصونوا الوطن ؟!



فرصة أخيرة

في قلب الهدير. بين تلك الأيادي الممدودة للإمساك بزرقة السماء. والهتافات التي أخافت المطر تحت الرايات المرفرفة ليحزم أمتعة غيومه وينقشع. وكأي رأس من تلك الرؤوس. انتبه الزعيم الكاريزمي إلى مدى انحسار شعبيته والذي بلغ مواطناً واحداً. في لجة هذا المهرجان الترحيبي معتمداً على حذره وبُعد نظره كسياسي محنك.
في اللحظة التي أثار القنّاص فيها انتباه مرافقي الزعيم. والعالم برصاصة خائبة. بدأت تحدث معجزة .. تحديداً عندما أبصر الزعيم - بنفس بُعد نظره - الموت. في أقرب مواجهة بينهما. مما جعله يكثف الأفكار على كثرتها بهدوء في أجزاء ضئيلة من الثانية. سمحت له باستعراض شريط حياته كله. خصوصاً عندما انطلقت ست رصاصات مختلفة باتجاه سطح البناية المواجهة لمنصة الخُطب حيث كان مزمعاً تلاوة الزعيم لبضع وعود. كانوا سبع رصاصات تحديداً. لكن الفرصة واتت الرجل المستهدف بتلك الطلقة لتبديل مصيره. عله يتحاشى الموت .. فكر الزعيم سريعاً في العرض الذي لم يسبق للقدر تقديمه لأي شخص آخر : كيف يغير مصيره؟ تجمد كل شيء حوله لبرهة. وعاد إلى ذاكرته. إلى اللحظة التي كانت النقلة وحولته إلى ما صار عليه الآن. حين جاء أولئك الرجال المهندمين في زيهم العسكري ووقفوا على رؤوس الطلبة وأذاعوا بينهم إعلاناً

عن حاجة الجيش إلى المزيد من المجندين والمتطوعين، متذرعين كالعادة بنداء الوطن. فكر الفتى، بأنه حين يتقدم خطوةً إلى الأمام ويرفع ساعده وسط زملائه إنما كان يصعد درجة نحو المجد. حيث كان التحاقه بالجيش هو الوسط الملائم لممارسة مواهبه وإبرازها. الآن يعود به الزمن لتغيير تلك اللحظة. فيعود في ملايين الأجزاء من الثانية إلى طالب في الثانوية يملك حق تقرير مصيره لا بل وتغييره. فيصر على وقوفه في الصف دون أن يصدر أي حركة.

تستمر حياته بشكل عادي. ينجح بتقدير ممتاز ويلتحق بكلية القانون في العاصمة. تنتهي الحرب. وبعد خمس سنوات يصبح محامياً متدرباً عند مدع في محكمة النقض. ثم مساعداً لمستشار أخر بنفس المحكمة تم تعينه كمدعي عام. يتدرج بعدها ليصبح سكرتيراً أول بوزارة العدل. فوكيلاً للوزارة بعد أن يقضي سنوات بدت نتائجها كإتمام حركة قفز بالزانة. ولكن حين يطاح بالحكومة في انقلاب عسكري، يصبح وكيل وزارة العدل، معتقلاً في سجن عسكري مع نخبة البلد من الساسة والعسكريين! في نفس الزنزانة سيلتقي بالنقيب الذي جاء إلى مدرستهم مع الزمرة من مصلحة التجنيد. ويتفق معه على الهرب. وبمعاونة سجان كان مديناً للنقيب بخدمة كاد أن ينجحا. لولا أن ذلك النقيب كان وقتها قد أصبح لواءً له نصيب من الشهرة في الوسط العام. فتوقفهما دورية تفتيش عند أحد الحواجز ليقعا مجدداً في الأسر. إلا أن الأمور سرعان ما تتعقد فيقرر الرجل الهرب في وسط ابتهاج الملازم بإلقاء القبض على مطلوب مهم بدرجة لواء. وحين يطلق وكيل وزارة العدل المنتهية ولايته ساقيه للريح، يخرج الملازم

الذي على وشك الترقية مسدساً ودون إبداء أي تحذير يطلق رصاصتين مع اتجاه الريح .. مما يجعل سقوطه على الأرض صريعاً أسهل فيزيائياً !

كانت تلك هي الفرصة الوحيدة المتاحة له كي يتراجع في الزمن ويغير مصيره من زعيم راحل إلى وكيل وزارة على قيد الحياة. لكنه وبسخرية قتل نفسه مبكراً بوسيلته غير التقليدية التي تحولت من معجزة إلى كارثة. لكن المأساة الحقيقية كانت حينما أصابت الرصاصة السابعة ذلك القناص وانتهى الهرج و المرج حول منصة الاحتفال دون أن يجد أحد جثة الزعيم الفقيد. والتي كانت قد دفنت في تلك اللحظة - دون أن يعلم أحد - منذ عشرين عاماً!.



‘

حصار طرادة

خمسة وعشرون قرشاً. لو كانت من المعدن ومستديرةً كتلك التي كانت تصك في "أم درمان"، لانتشلها من الماء دون تردد. سأل والدته إن كانت تود شيئاً آخر قبل أن يلقي تحية الصباح من فوق الدراجة على والده متجهاً إلى السوق. سيشتري بتلك "الطرادة" كما كان يطلق على ربع الجنيه أيامها: كيلو من اللحم بسبعة قروش، وجريدة "الأيام" من كشك الصحف بقرشين. تلك كانت أولوياته ومن بعدها فليذهب بالستة عشر قرشاً الباقية نيل شهر أغسطس الجارف. فهي ليست سوى ثمن الخضار الذي ستعد منه أمه صحن السلطة، وزيت الذرة لقلي السمك على الغداء. أما والده المهندس بـ"مصلحة النقل الميكانيكي" فسيكتفي بطبق الفول الغارق في زيت السمسم ورغيفين من الخبز الدافئ قبل أن يتوجه إلى عمله بـ"الخرطوم" على الضفة الأخرى من النيل.

عندما يكبر قليلاً سيشعر برجولته لقاء "طرادة" واحدة، فهي ثمن ليلة صاخبة بكامل العتاد الأنثوي. لكنه مع مضي الوقت لن يكتفي بجنيه سوداني بحاله لإشباع غرائزه المتناسلة. إلا أن "الطرادة" لن تفقد فحولتها وفقاً لذلك في هذا الوقت الوجيز. فقط اسمها سيختفي بعد أن تفقد قيمتها نتيجةً للتضخم المتزايد مع تغير مقاسات المعاطف بشماعات القصر الجمهوري.

سيصبح الطالب المجتهد في "بحري الثانوية" نقيباً في خفر السواحل شارف على التقاعد أمام موج البحر في شاطئ سواكن. بحر لا يوفر له المعارك الزاخرة بالغنائم، وتحت سماء تشح من النجوم و النسور التي تحط على أكتاف العسكر المتمركزين بالعاصمة وحدها .. هناك حيث لا يصل مرتبه الشهري إلى ذلك الرقم "خمسمائة ألف" إلا إذا أضيف إليه : ما يتقاضاه من رشاوى المهربين والإتاوات من صيادي السمك والزوارق المتسللة من جزر "فرسان" و"دهلك" و "حنيش" بكل ما يستحق الليل إخفاءه تحت إبطه الأسود.

خمسة و عشرون قرشاً. لو كانت من المعدن لما طفت الآن على سطح الماء مؤلفةً من الغضاريف ومحاطةً بالزعانف التي برزت لتمكنه من عدها وتمنحه الفرصة لتلاوة صلاته الأخيرة. بعد أن تلقت دعوةً لعشاء سريّ من غيوم الدم الذائب في محبرة الساحل. فيتفشى سائل الموت تحت المياه الزرقاء لبحر يحمل اسمه لون جرحه البالغ. لن يطلق سؤاله الأثير الآن الذي طالما راوده في ساعات التأمل الطويلة عن المصاب بعمى الألوان الذي سماه بالبحر الأحمر، فوقتها كان الليل كما عهد عنه لا يتنازل عن صبغ كل شيء حوله بعباءته. فلا ينتبه أحد من زملاء النقيب / محمد الحسن تاج السر. في كشك خفر السواحل النائي إلى مصباح قاربه المهشم تحت وقع الرصاص الذي أصابه بعد اشتباك مسلح مع من لا يهم كنههم الآن. بقدر ما يهم أنه كيف ستعلم السلطات أن جثة النقيب كانت مسرحاً للنزاع عليها بين هذا العدد الأسطوري من أسماك القرش ؟!.



النهاية

انكب في ركوعه مبعثراً حركات أصابعه، بين شتات الأغراض التي ألقاها عمداً ليتملص من خطاف علامة الاستفهام التي أطلقتها زوجته وهي تنزوي في طرف الغرفة واقفةً على اتكاءة، تنتظر إجابته على ذلك السؤال العاطفي المعهود: هل مازلت تـ...؟ ولم يجب كما لم يعد يجبها (ثمة نقطة زائدة أسفل الجيم).

تناول جواز سفره نافضاً عن نسره غباراً وهمياً، والتقط قلمه الجاف الذي استهلك ربع زرقته الليلة البارحة في التمرين على توقيعه الجديد: نفس الاسم وبعض الحبر العابث .. ثبّته على جيبه ثم أخفى ظرفاً رمليّ اللون بين الملتقطات باصقاً عنه خصلة شعر أسقطها الاستشوار، بدا وكأنها أزعجته، ثم رفع عن الموكيت تذكرة السفر الوحيدة التي ارتدت أيقونة دائرية .. دائرة تحاصر نخلة يتقاسمها سيفان متقاطعان، وكأنهما يقولان للمذكور أدناه: "إلى هنا يصل حلمك لحد ذو سلاحين"!

أغلق سحّاب حقيبته الأسطورية المصابة بالبدانة، بعد أن أحرق مئات السعرات الحرارية في دفع كرش الأمتعة داخل الحقيبة، وريثما تأهب للرحيل كانت لازالت هناك . هو المغادر شرع يقنع بالمشط شعره المتحجر بالمواظبة على ذلك الشكل، وانهمك - بعد زخات العطر - في بهرج الزي بطريقة كأنما كانت تلك البذلة الرمادية من ترتديه لا العكس، بينما هي احتفظت في شفتيها على آثار المحاولة الفاشلة لإبراز آخر معاقل الأنوثة في جسدها، كالقلم الموّضح لعبارة ما في أحد المراجع، حتى أن الأحمر تجاوز حده إلى مليمترات بعد الشفة

السفلى، و رغم قرمز ثوبها الذي لفّقته بقامتها المتهازلة، إلا أنها بدت أقرب إلى أرملة في لباس حدادها.

أما بعد.... فقد خرجا، اتجه سيادة الزوج ساحلاً تلك الحقيبة نحو سيارته التي سقطت من منظوره الآن على غير زهوه المعتاد بها، بينما أغلقت هي باب البيت المعدني بقفل يناهزه في المعدن قلب الرجل الذي تشيّعه الآن، ثم لحقت به إلى اليمين من قمرة السيارة تاركةً إياه خلف المقود، وأغلقت بابها، وانطلقت (تلك الخردة) إلى المطار.

تجاهل صور الحي التي حاولت أن تتشبث بعينيه، واعتمد في ذلك على نظارته الشمسية الداكنة محاولاً ألا ينهمك في أيّ منها كي لا يزحم ذاكرته بأشواق مستقبلية، وكثّف اهتمامه حول كل السنين الماضية المقضية في حياة زوجية قلقة، ومهن ووظائف أكثر ما فيها هو الفترات الزمنية التي قضاها بينها موزعاً للـ (CV)، فانتهى البحث عن مستقبل مشرق، إلى السفر نحو المشرق.

وصلا، ولم ينفقا شيئاً من الحديث تاركين إذاعة (أم درمان) تفعل بدلاً منهما، ترجل كل منهما بالجانب الذي يريّحه، احتفظ الرجل بمهمة حمل الحقيبة والسبعين طناً من الآمال وحده، بينما اكتفت حرمه المصون باستلام مفاتيح السيارة منه، و نظرة شحيحة من بين نظارتيه الحياديتين.



ودخلا البوابة من أوسع أمتارها، تحديداً تحت لافتة : "المغادرون".

انتهت البلاطات سريعاً تحت خطواتهما، وقف الزحف لأكثر اللحظات تراجيديةً، ولم تتردد تلك في الارتماء على أحضانه مودعة، أحسّت بكل روحه الجليدية لكنها لم تتوقع أن يكون شعوره في تلك اللحظة هو الخطيئة كونه يحتضنها بذلك الشكل! فقط حين التصق صدرها بمعطف البذلة ومزاحمته لربطة العنق أسكتت اعتراضه الضميريّ، حتى انسحبت عنه تاركةً على منكبه بقعتين داكنتين من الرماديّ بدلاً لعينها، كفكفت الحزن السائل منها وإحساسها بالذوبان فيه، واستمعت لكلمته الوداعية بنصف أذن، وبعد أن لفظ نقطة آخر السطر أخذ يلتفت نحو الجديد، حاولت أن تعيد عليه السؤال، لكن القضبان النحاسية القصيرة التي أحاطت بطابور المسافرين بحبال من المخمل بدت أكثر ارتفاعاً ومحاباة للفصل بينهما رغم الصدأ وقانون الجاذبية الأنثوية الذي بدا أنه قد تخلى عنها.

ضرب الضابط بالختم على دفتره الأخضر. ودون أن ينسى معاينته بنظرة الحسد المكررة تلك. تأكد من أن حقيبته نظيفة بكل المقاييس الأمنية. ولأن دواخل البشر لا تفتش على منصات المطارات. دخل من بوابة الخروج إلى عالم أقل ثالثية من هذه البلاد. التفت أخيراً ليودع من كانت في انتظاره بتلويحة كف. لم يجدها بين الأكوام البشرية. فدخل متنازلاً عن الفكرة.

استقبلتها الظهيرة باستفزاز غددها العرقية. والشارع يتثاقل في التقاطها. حين ركبت السيارة التي أضافتها إلى ضمير ملكيتها بدلاً عن ضمير الغائب. اكتشفت فوق لوحة القيادة طرداً بريدياً تلصصت على زوجها وهو يحمله. ترجلت على استعجال لتلحق به. إلا أنها ما أن عبرت البوابة للمرة الثانية بشبر. حتى اكتشفت أن زوجها لم ينس الظرف. ولكنه وكما كل الظروف السابقة. أناط مسؤوليتها بامرأته.

هو

الذي بعد الإقلاع، شاهد الخرطوم وهي تتصاغر من تحته كتضاؤل الكثبان في ساعة الرمل. وبعد أن مل المنظر، أغلق النافذة لتستقبله في رحاب الظن مضيفة فلبينية اعتقد بخياله الأضيق من عينها أنها كانت تغمز لجنابه. مما سوّغ لخياله أن يرسم صورة الفتاة الجامعية التي سيعود لخطبتها بعد سنتين مبدئيتين ومائة ألف ريال: "فهد ينطح فهد". لكنه حين تذكّر أن البيت المتروك لا زالت تؤول ملكيته باسم تلك، امتقع وجهه في وجوم تبرعم خلاله بعض الغضب: "لماذا تركت ملكية البيت لها؟" ولشدة لانفعال، انخرط كابتن الطائرة في الفكرة متضامناً، فهبط بالبوينج 747 إلى عمق البحر الذي وفرّت "حُمرته": الدماء على ضحايا السقوط الكبير: "٢٥٠ راكب حالم، والطاقم ".

هي

التي قبل الرجوع، ركبت سيارتها مجدداً وانهمكت في الطريق. ملأتها ظنونٌ بأن ما داخل الظرف هو رسالة وداع من زوجها سيعتذر فيها عن سالف أفعاله بها، أو زيادة لوعوده الجمّة التي يجيد تنميقها بأسلوبه المراوغ في الحوار. لكن أكثر ما راقها من ظنون هو أن تجد إجابة لسؤالها العاطفيّ الساذج بين أحشائه الورقية. ولما أوقفت أفكارها والسيارة تلبيةً للإشارة الحمراء شرطي المرور في اللباس الأبيض، لم تحتمل طعنات الفضول في نفسها. فمزقت الظرف لتقع في مأزقها ذاك. كانت الفاجعة في المسدس الذي ألقى عليها الطلقات الثلاث: قسيمة طلاق تحمل اسمها واسم الآدم الذي ظنت نفسها حواءه. – وكعادة النساء في المسلسلات التلفزيونية حين يتلقين الخبر – انهارت. قبل أن يشفع لها عند الانهيار شيك مصرفي حمل بعض الألوفات التي تبقت من ثمن التأشيرة والتذكرة. ولولا صراخ الأبواق من وراء ظهرها المغدور، وتكشيرة الشرطي، لسارت جلطتها على ما يرام. لكن الشرطي أعلن انضمامه القسري لمسيرتها فالتحق بمقدمة السيارة صارخاً عبر الزجاج الأمامي. بالإضافة لعربتي نقل عام ودراجة نارية سقطوا جميعاً بطريقة دومنوزية فوق بعضهم البعض. وباستثناء الحافلة المكتظة بأربعين نسمة. فإن أحداً لم يرافق الزوجة السابقة وهي تسقط من فوق الجسر النيليّ الصامد منذ أيام الانتداب الإنجليزي نحو النهر لتمسي: امرأة سابقاً.



اختراق لطقوس الصباح

أمسك بمزلاج الباب في محاولة لدخول الحمام. تلك الحجرة التي تتخذ حيزاً صغيراً من شرق المنزل. فتح الباب ومد قدمه اليسرى وردد في خلده غيباً من كتاب التربية الإسلامية: "أعوذ بالله من الخبث والخبائث!" وهو يشرع في الدخول. أغلق الباب ذا القفل السيئ رديء الصنع. ونظر إلى وجهه في المرآة الكائنة على يساره فوق المغسلة وقد شابته آثار الليل. وجه شاحب غرق في النوم ثم صحا: "هذه حال الدنيا نوم واستيقاظ". ردد في صمته وهو يغسل يديه على عجالة. ليتقدم نحو المرحاض. نظر إلى النافذة الصغيرة التي فوقه قبل البدء في طقوس الصباح. فبدا له الهلال وهو مقبل بشكله النصف دائري نحو الأعلى محاكياً قشرة البطيخة الخالية من اللحم في شكله. وأسفل منه قليلاً كانت تعبر بضع سحابات صيفية نادرة. ومنها أيضاً بدا ضوء بسيط للشمس في بداية نضالها اليومي من أجل الانتشار. اختلط شعاع الشمس بسنا القمر مضيفاً طابعاً جديداً للمشهد. كان الصبي شاعرياً ففضل عدم إضاءة المصباح والاكتفاء بما تبقى من ضوء القمر الفضي. فقد كان مغرماً بالعتمة التي تتخللها أضواء الشموع.

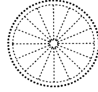
أعاد الكرة مرة أخرى لينظر للهلال. شعر بإحساس غريب -وهو ما يزال واقفاً- قطع ديكٌ حبل أفكاره فجأة بصياحه. يصيح الديك كل سبع ثوان وهو يلقي ترانيم الفجر اليومية. وها هو آخر يحذو حذوه في نزاع حول الصدى. بدا كل من الديكين مختلفاً عن الآخر. كان أولهما يصيح: "إي كي كي كـــيّ" والآخر: "كو .. كوكو كـــو". وساد تساؤل: "هل هو اختلاف

اللغات لدى الديكة ؟ أم اختلاف الاعتقاد الديني ؟!! "
حيث كانت الفكرة أن كليهما ملقيّ للترانيم. صاح الديك مجدداً معيداً إلى الصبي ذاكرته المثقلة فسافر عبرها عائداً إلى حيّه القديم حيث حجرته التي تطل نوافذها على عم "وجيه" مربيّ الدجاج ومحله المنعوت بـ "طيور الهنا" . كان عم وجيه مصرياً ثرثاراً .. وطيباً. وقد شابهته ديكته في الصفة الأولى. ونكهة لحمها في الثانية. فكانت كلها صداحة ومزعجة لا بد أن تبصم بصمتها كل صباح.
أعاد صوت للصبي إدراكه ليتذكر أن والده في انتظار خروجه ليحين دوره في أداء الطقوس -وإن كان يسمع شخيره المؤقت من الحجرة القريبة- تذكر أيضاً بصياح الديك المؤذن الذي استيقظ قبل قليل بصوته الذي لا يقل عن صياح الديك إزعاجاً إلا في فحوى القول. فكر في صلاة الصبح التي يخطئ والده في التفريق بينها وبين صلاة الفجر. عاد الوعي مرةً أخرى للصبي ليرى في وقفته فتحة النافذة فأعاد النظر من خلالها ليشهد بداية انتصار أشعة الشمس التي كانت في تقدم بينما السنا ولمعان الشموس البعيدة في تقهقر. نظر إلى الهلال البطيخي الشكل ليراوده ذلك الشعور من جديد الذي اختفى ليعود فجأة. شعور هو في أصله مزيج بين الخوف والخجل. فما أن تملكه وسيطر على أعصابه حتى قرر الجلوس فوق المرحاض أخيراً مغيراً فكرته الأولى في أن يتبول واقفاً !.



دفء

كنتُ منغمساً في قراءة المجلة على إيقاع جيتار كخلفية موسيقية لغرفتي، عندما اقتحمتها دون أن تطرق الباب. لم أكن لألتفت لولا اصطحابها لتيار هوائي فاتر. ناولتني صحناً صغيراً تحت برتقالة مقشرة وهي تراقص أصابعها المبللة: " نحن في أمس الحاجة لـ ڤيتامين سي! ". كان الصحن بارداً هو الآخر. مررتُه إلى الناحية الأخرى منيّ ووضعته فوق الوسادة. تمنيتُ لو تبتلعني فردتا جوربيّ، وواصلتُ القراءة. أخذت هي فنجان الشاي الصباحيّ وإناء الحساء الفارغين، بعد أن أخفضت صوت المسجل. ابتسمتُ من خلفها بينما تغادر، لكنها لم تنتظر شكراً. أغلقت الباب وأنا في نهاية المقال .. أحاول الاهتداء لطريقة تخولني لالتهام الثمرة دون أن أبلل كفي العاري بسائل مبادرتها الحميمة في هذا الجو البارد. فعلى أية حال .. لم أكن بحاجة إلى برتقالة كي أشعر تجاهها بالامتنان.



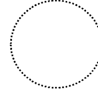
معايير مزدوجة

كان دائماً حينما نلتقي في العطلات يتذمر من كوني أصغر أصدقائه سناً بفرق شاسع عنه. مما كان يزعجه خصوصاً حينما يفكر فيما انقضى من عمره دون تحقيق رغباته بالحياة. ولكنه بعد عدة أشهر لم يعد يردد دعوته الدائمة لي بالبحث عن رفاق يقاربونني سناً. ليس لأنني كنت قد امتلكت شاربين واضحين حينها. بل لأنه كان قد تعرف على "سيلين" التي قرر الارتباط بها والتي تصغرني بعامين !.



ماراثون

يركض بأقصى هبوبه. الدم يعدو بنفس السرعة داخل العروق. مسافات سرمدية تترامى أمام عينيه، والأفق في تناسل مستمر، ومع إيقاع دقات قلبه المتسارعة حاول أن يدرك هدفه متجاوزاً اللهاث بالخطوات العنيدة لتجاوز كل منافسيه، تخيل كل المشجعين يهتفون باسمه، وهو يركض.. يركض.. يركض من أجل الوصول، وحينما أوشك .... صار خارج النص !.



ورقة وقلم

شراكة أدبية - فنية تهدف إلى المساهمة الإبداعية سردياً وشعرياً ضمن قوالب جمالية مغايرة. تضيف إلى عملية النشر مفاهيم جديدة، وتستفيد من كل الخيارات المتاحة للانتشار وتوسيع نشاطها.

حسام هلالي

كاتب وشاعر سوداني.
من مواليد ١٩٨٦. يقوم بدراسة الهندسة الوراثية بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.
http://husamhilali.maktoobblog.com/

أحمد فولة

مصمم جرافيك حر.
seashellnoise.com

المحتويات